بها الاعلام العربي ، ماذا حدث ؟ « حضن الوطن يا صغيرتي كحضن الام لا بديل عنه مهما تدفق الخير والحنان من سواه » . سمعت وداد هذه الكلمات من امها وهم يغادرون شاطىء يافا على مركب النزوح . وتبرز صورة تقطر الما للفراق ، اذ قالت وداد في سرها : « كم بيت بنيت على رماله الناعمة !!.. لقد تهدمت كلها وانهارت .. كما تهدمت احلامي » . واختفت يافا وراء الافق ، واحست وداد ان كيانها ينفصل عن ذاتها ، وخاطبت نفسها : « سيكون العقاب مؤلما بقدر الالم الذي اعيش ، فالجريمة كبيرة ، والجزاء سيكون أكبر ». وهنا نسمع مرة اخرى صوت الكاتبة لا صوت وداد . فالطفلة الساذجة لا يمكن تحميلها عنف محبة الارض ، ولا لغة السياسة الناضجة .

تسكن العائلة في احد مخيمات بيروت ، وتتابع وداد دراستها ، وتحصل على شهادة البريفيه وتعمل معلمة في « مدرسة صبرا » التابعة للاونروا . البؤس الشديد الذي كان يعاني منه سكان المخيم دفعها دائما الى التأمل والجلوس على باب المخيم ، وتترك لمخيلتها القيام بالدور . اين ذلك الاسمر على جواده الابيض ، « ذلك الرجل العظيم الذي لا يزال يعيش في خاطري .. سيكمل تعليمي وتخصصي .. سانتظره هنا على باب المخيم ، سيمر بي يوما ويأخذني على صهوة جواده الابيض » . وتعود الكاتبة الى فضح التآمر وسرده في روايتها مرة اخرى . الا ان التآمر هذه المرة مختلف عما ذكرته في القسم الاول من الرواية . انه تآمر اللجنة التي اشرفت على وضع كتب التدريس في المدارس التابعة لهيئة الامم المتحدة . مدير المدرسة التي تعمل بها وداد اختلف معها وطردها من العمل لانها خطرة . « خطرة لانك تحشين رؤوس الاولاد بالقضية فتصرفيهم عن دروسهم وتشوهين افكارهم البكر » . لقد ادركت وداد أن الكتب المقررة التي وضعتها لجنة سياسية خاصة ، لا يمكن ان تخلق ثورة ، ولا يمكن ان تحرك عنفوان القضية .

المشوق في رواية « شجرة الصبر » ، اسلوب الكاتبة اثناء معالجتها لصلة الانسان بالارض والوطن ، وبصلته بالاخرين . ويبدو ذلك من الم وداد الشديد « لانتشار الجوع والمرض في كل مكان » . فسكان المخيم يتحركون « ليثبتوا انهم احياء فقط » ، و « حتى ان طلاب المدارس الحفاة اكثر عددا من المنتعلين » . بالرغم من كل ذلك لم تسمح وداد لليأس ان يثبط من عزيمتها ، وقالت « ان استسلم وأعلن ولائي لواقع فرضته علي ظروف الحياة القاهرة فهذا امر لا افكر فيه اطلاقا . لن اكتني رقيتي لك ايتها البقعة السوداء المختلة من جانبنا » . وعن صلة الانسان بالارض ، تقول — دون ان تتمكن من اخفاء الاعجاب — فتاة فلسطينية تقول للمرة الاولى : « ليت اغتصبت الاعراض كلها ، وبقيت الارض » . وتقرأ ايضا « ليت ابي غاص بي ، بأمي ، بأخي . ليته غامر بنا جميعا ولم يغامر بالارض » . استطاعت المؤلفة أن تعبر عن التصاق الانسان بالارض ، عبر هذه المقاطع ، بعمق محبته لها ، وبحرارة صلته بها .

القسم الثالث من الرواية ، وهو « الجريمة والعقاب » ، يظهر في معظمه الهدوء ، ويروي باسلوب رمزي ذكي . ويعالج علاقة القضية الفلسطينية بالانظمة العربية . ولجأت المؤلفة الى اعتماد الرمز الذكي والحذر في رسم ابعاد هذه اللوحة . فوداد هي القضية ، وجاسر بك واخوته من أم اخرى هم الانظمة . هناك العديد من المقاطع في هذا القسم تحرك اعماق القارىء لدرجة كبيرة ، من شدة هذا التحرك ننسى احيانا اننا نقرأ رواية فلسطينية . فحين ذهبت وداد الى مكتب جاسر بك ، المحسن الكبير ، لطلب مساعدته المادية لاجراء عملية جراحية لاخيها الضرير .. « فتحت عينيها اللتين اغرورقتا بالدموع ونظرت في عينيه .. كان الحنان يتدفق من نظراته الحادة كنظرات صقر فتي ، وتدحرجت بنظرها لتلتقي ابتسامته الصافية المشعة تلتمع فوق شفتيه » . ونتسى ايضا اننا أمام رواية فلسطينية حين نقرأ كلمات جاسر بك التي قالها لوداد . « احبك ، وحبي طاهر كنفسك التي عرفت ، صدقيني ، وامنحيني ثقتك » .

حاولت الكاتبة ان تظهر تمرد المرأة وغضبها عبر وداد . فوالدة وداد « لا تعرف سوى كلمة نعم » ، ولم تتمكن وداد من دفعها الى التمرد « على الذليل من الكلام » . الا ان التمرد بدا واضحا في نفس وداد التي جاء على لسانها : « انا انسانة احب التمرد على كل شيء . احب معاندة العبد شرط ان يكون هذا العبد قويا ، أما الضعفاء فلا يعنيني من امرهم شيء . اكرههم ، احتقرهم ، احقد عليهم » . جميل ان نقرأ تمرد امرأة ، واجمل من ذلك ان تكون امرأة فلسطينية .